هل من سبيل إلى عالم أفضل ؟لماذا ؟وكيف ؟

ذ. رشيد أبو ثور

إن "الإنسان ذئب بالنسبة للإنسان". هكذا تحدث توماس هوبز Tomas Hobbes (1588 ــ1679) في القرن السابع عشر عن العلاقات البشرية، معلنا منذ ذلك الحين عن قانون الغاب الذي يحكمها. وكان من المفترض أن يكون مرور الزمن وتراكم التجارب بحلوها ومرها، وتقدم العلوم والتكنولوجيا، كفيلا بتهذيب الإنسان وجعله أكثر رشدا ونضجا؛ غير أننا نجد العالم، وبعد مرور أكثر من أربعة قرون، لازال لم يبرح بعد هذه الصورة الهمجية التي رسمها هوبز؛ ولو كان قد قدر لهذا الأخير أن يطلع اليوم في القرن الحادي والعشرين على الظروف الرهيبة، لاحتجاز ما يربو عن 6000 سجين بمعتقل غوانتانامو Guantanamo، وعن ما حصل لسجناء أبي غريب من امتهان ، هذا ناهيك عن قتل المدنيين أطفالا نساء وشيوخا في الفلوجة وحرقهم بالفسفور الأبيض ، وما يعانيه الأبرياء في المدن العراقية الأخرى ، وغيرها في فلسطين وأفغانستان والشيشان ، لنعت الإنسان بما هو أشد بطشا وإيغالا في القسوة، من الذئب.

لقد مرت البشرية بتجارب مريرة، وقاسى المناضلون الصادقون عنتا شديدا في سبيل الدفاع عن حقوق الإنسان؛ وتم بعد صراع مرير وطويل التواضع على كم هائل من المواثيق والعهود الضامنة لهذه الحقوق؛ ورغم كل هذا لازالت حرمة الإنسان المستضعف واهية في حس المستكبرين في الأرض. إن هؤلاء لا يستدعون هذه المواثيق إلا إذا كانوا سيتخذونها مطية لعدوانهم، ولا يجدون أدنى حرجا في التنكر لها عندما تكون حجة عليهم ؛ ولقد رأينا كيف غيروا حتى قوانينهم في الولايات المتحدة وبريطانيا في اتجاه مزيد من التضييق على حقوق الإنسان ، بحجة محاربة الإرهاب ، وكانت الإدارة الأمريكية قد أصدرت خلال

الحرب العالمية سنة 1944 مرسوما تم بموجبه سجن 120 000 مواطن أمريكي من أصل ياباني.. في حين ما وضعت القوانين إلا لحماية حقوق المستضعفين في حالة الأزمات ، أما التبجح بالتمسك بحقوق الإنسان في حالة الرخاء ، فهذا ما لا قيمة له .

ومن المؤلم أن يكون التقدم العلمي والتكنولوجي، قد وضع بين أيدي المستكبرين في العالم وسائل للبطش والتنكيل، جعلت قدرتهم على الافتراس تفوق الخيال. وها نحن نعيش في مطلع القرن الحادي والعشرون إبداعا عدوانيا جديدا، تفتقت عنه قريحة مراكز الطغيان العالمي وشهيتهم للدماء والإخضاع، تحت عنوان "الحرب الابتدارية"، وهي حرب لا تشن ردا على عدوان، إنما تستهدف بكل ألوان البطش والدمار، من يقدر ويدعي طغاة العالم أنه يشكل تهديدا محتملا على أمنهم أو مصالحهم. ولا يخفى على ذي لب أنها مجرد مبررات موغلة في الوقاحة، للهيمنة على مقدرات الشعوب، تم ابتداعها بعد ما لم تعد شعارات من قبيل "الدفاع عن الشرعية الدولية" أو "حق التدخل الإنساني" تنطلي على أحد.

غير أن الذي يجب التأكيد عليه هو أن قانون الغاب هذا يسري على الجميع، وينكل بكل مستضعف، سواء وجد في بلاد الغرب التي تتبجح بسيادة القانون والحريات، أو في البلاد المستضعفة المغلوبة على أمرها؛ فالذي يختلف من موقع لآخر ليس هو الافتراس في حد ذاته، وإنما طبيعة هذا الافتراس التي قد تتخذ منحى ثقافيا أو إعلاميا أو حقوقيا أو اقتصاديا أو عسكريا أو أي شكل يمكن في النهاية من إخضاع الأضعف لهيمنة الأقوى. فلا وجود لحقوق إلا حقوق الأقوى، ولا يتمتع بالحقوق، كل الحقوق، إلا من يقوى على فرضها أو انتزاعها.

وإذا كان هذا العدوان يتم بشكل مباشر، فهناك عدوان آخر غير مباشر، يتم من خلال تدمير المحيط البيئي للإنسان؛ فلقد تعرض هذا المحيط ولا يزال، لدمار اختل معه التوازن الطبيعي ؛ وليست الكوارث الطبيعية من أعاصير وحرائق وفيضانات وارتفاع أو انخفاض في الحرارة غير معهودة في مناطق معينة ، إلا إرهاصات لما يتهدد الحياة البشرية برمتها ، إذا استمر الزيغ البشري على هذا المنوال.

وإنه لزيغ حضاري رهيب، نزع كل قدسية عن الإنسان واعتبره مجرد رقم أصم في معمل الإنتاج وبطن محتاج في سوق الاستهلاك، كما اعتبر حاجاته المادية منها والمعنوية، بل وحتى الإنسان نفسه، مجرد سلع تجارية خاضعة لقانون العرض والطلب، الذي لا يأبه بدين ولا خلق.

لا يخفى على أحد أن الغرب الذي أقحم العالم في حربين ضروستين مدمرتين في النصف الأول من القرن العشرين، هو المسؤول الأساس عن أزمة عالمنا اليوم؛ وما كان لهذا الزيغ الحضاري أن يتواصل بهذا الشكل الرهيب لولا فساد الأسس الثقافية والفكرية التي يستند إليها؛ فليس هذا الزيغ إلا نتاج الثقافة التي أسست لـــ" ميلاد حضارة الكَم والمنطق العقلاني النفعي" كما وصفها الأستاذ جارودي، وتتميز بتحللها من كل المرجعيات والقيم الدينية أو الخلقية أو الإنسانية المتعارف عليها؛ إنها ثقافة "العلمنة" التي نشئت عليها أجيال متتالية، منذ عصر النهضة، إلى يومنا المأزوم هذا؛ وتتميز بنزع كل قدسية عن الكائن البشري، واعتماد الدروينية الاجتماعية التي تجعل بقاء الإنسان لا يستند إلا لقوة المدفع وللقدرة على تسخير العلم والتكنولوجيا لإخضاع الآخرين، من دون اعتبار لأي مضمون معنوي. ومن الواضح أن هذه العقلية هي التي أنتجت سياسة الكيل بمكيالين، التي ليست وليدة اليوم، بل إنها عريقة عراقة هذا الفكر نفسه: فلم يمنع رفع أوروبا شعار الدفاع عن حقوق الإنسان، من ممارسة الاستعمار بأبشع صوره؛ "ويقدم "إعلان استقلال الولايات المتحدة" الصادر في 14 يوليو 1776، والذي غالبا ما يذكر بصفته إرهاصا لـــ"إعلان حقوق الإنسان والمواطن" لفرنسا الصادر سنة 1789، مثالا مدهشا عن نفاق "الحرية" بالمعنى الأمريكي للكلمة، كما يقول الأستاذ جارودي. يعلن النص في مطلعه أن "كل الناس قد خلقوا متساوين؛ ومنحهم الخالق حقوقا لا يجوز لأحد أن يتصرف فيها: ألا وهي الحياة و الحرية والبحث عن السعادة ؛ غير أن هذا النص على "الحرية"، لم يمنع من استرقاق السود طيلة قرن: و لم يلغ سنة 1865، ما كان يسمى إلى ذلك الحين بـــ"النظام

القانوني الخاص"، أي الاسترقاق، إلا بحرب أهلية. وعند تحرير السود، لم يكن قد أعد لهم أي مكان في المجتمع. (فلم يمنحوا مثلا الستون فدانا التي منحت للبيض). وظهر وقتها إرهاب المجتمعات السرية مثل الـــ"كو كلوكس كلان". لقد أقصت "القوانين السوداء" العبيد القدامى من الحياة السياسية، مثل ما أقصاهم التمييز العنصري عن المجتمع المدني؛ ولازال الأمر على حاله إلى يومنا هذا رغم تضحية مارتين لوثر كينج Martin Luther King." ـــ روجي جارودي، الولايات المتحدة طليعة الانحطاط ـــ

إن هده العقلية العلمانية النفعية الفجة هي التي أسست للإبادات الجماعية في كل بقعة من الأرض حل بها الإنسان الأبيض، وهي التي لا زالت إلى يومنا هذا تبرر الفتك بالمستضعفين، كلما اقتضت مصلحة الأقوياء ذلك.

من الواضح أن حظ العالم الإسلامي من هذا العدوان كان ولا يزال الأكثر شراسة وصلافة، وخاصة عندما دخلت على الخط معتقدات دينية فاسدة، من قبيل الصهيونية بشقيها اليهودي والمسيحي؛ وليس ما يحدث في فلسطين من تقتيل وتدمير وحصار، لا يبقي ولا يدر أمام سمع وبصر العالم، واحتلال العراق ضدا عن إرادة الشعوب، وعن ما سمي بـــ"الشرعية الدولية"، إلا دليلا صارخا عن هذه الدروينية الاجتماعية الهمجية، وعن هذه الانحرافات كلها.

أمام هذه الصورة القاتمة للواقع العالمي، وخاصة عندما نرصدها من داخل عالمنا الإسلامي المنكوب والمحاصر، نجد أنفسنا أمام سؤال حاسم: هل من سبيل إلى عالم أفضل ؟ وهو سؤال لا نطرحه لوحدنا، بل أضحى مطروحا على المستوى العالمي لأن أزمتنا ليست إلا جزء من أزمة إنسانية شاملة، يئن تحت وطأتها مستضعفو العالم كافة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أمرين أساسيين: يتمثل أولهما في كون القيم العلمانية منافية للفطرة البشرية السليمة، وبالتالي لم تستحوذ على عقول وقلوب جميع أبناء الغرب؛ فلم يخل زمان من عقول حية وأصوات حرة وجريئة ارتفعت من داخل الغرب نفسه، منددة بهذا الزيغ الحضاري العلماني الرهيب الذي يهلك الحرث والنسل، ومطالبة بتصحيح المسار.

أما الأمر الثاني فمتصل بعقيدتنا الإسلامية التي تجعلنا لا نتردد في الإجابة بـــ"نعم" عن سؤال "هل من غد أفضل ؟" ليقيننا بأن مدبر هذا الكون قد جعل الأيام دولة بين الناس، وأن دوام الحال من المحال: ومن الإشارات التي يجب التقاطها بهذا الصدد، شهادة أكثر من 50 % من الشعب الأوروبي بأن دولة الكيان الصهيوني تشكل خطرا على السلم العالمي، تليها في ذلك الولايات المتحدة، وهي خطوة لا بد أن تليها خطوات أخرى.

فكيف السبيل إذن إلى هذا العالم الأفضل؟

إنه سؤال كبير، لا نستطيع أن نحيط بكل تفاصيله، لأن المعضلة كبيرة ومتعددة الأبعاد والسبيل إلى حلها طويل وغير معبد؛ لكن حسبنا في عصرنا وجيلنا أن ندرك ونرسم الخطوط الكبرى لهذا الحل، لنحدد بوعي دورنا بالذات على هذا الدرب الطويل.

وأول ما يجب إدراكه، هو أن أزمة عالمنا اليوم، ومن ضمنها حل معضلة العالم الإسلامي، أزمة إنسانية شاملة، ولا يمكن أن تجد سبيلها للحل إلا من خلال تحرك إنساني شامل، تلتقي حوله جهود كل متضرر وكل راغب في الإصلاح، بغض النظر عن هويته ومنشئه؛ ويجب أن ندرك ثانية أن هذا الزيغ وهذا الطغيان المتعدد الأبعاد لا بد أن يصلا إلى الحد الذي تحدث معه ردة فعل شاملة، وتتهيأ معه الظروف لتكتل الجهود المصممة على المقاومة والتغيير.

ولقد بدأت فعلا إرهاصات العمل لهذا الغد الأفضل، تتشكل عبر مختلف بقاع المعمورة، متباينة في تاريخها ومواقع أدائها، واتساع تأثيرها. ويمكن تقسيمها إلى خطين بارزين: خط "الصحوة الإسلامية " التي لم يعد يقتصر حضورها على بلاد المسلمين، بل تعداها إلى العالم بأسره؛ ولعل أهم سبب في محاصرة هذه الصحوة، يكمن في ما يبشر به الإسلام من قيم حضارية تتناقض كلية مع القيم العلمانية الفجة، التي أنتجت قانون الغاب الذي يسود عالم اليوم.

ويتمثل الخط الثاني في "المنتدى العالمي الاجتماعي" الذي يمثل فضاء لتلاقي وتنظيم وتوجيه، جهود آلاف التشكيلات والهيئات المتعددة الاهتمامات

والتخصصات والتي يجمعها هدف واحد، يلخصه الشعار الذي رفعه هذا "المنتدى العالمي الاجتماعي" في وجه غريمه "المنتدى الاقتصادي العالمي" معلنا: "إن هذا الزيغ الحضاري ليس قدرا مقدورا، وإن عالما آخر ممكن "

مع إدراكنا لأهمية هذه التحولات وإن كانت لا تزال في مرحلة جنينية، ندرك في الوقت ذاته أن عزمات الرجال والنساء هي التي تصنع التغيير وتحقق الآمال، وأن حسن التقدير والتدبير هو الذي يختصر الطريق ويقلل التكاليف. وهذا ما يدعونا إلى طرح جملة من الأسئلة تتحدد من خلالها طبيعة العمل الميداني الذي تقتضيه الاستفادة من هذه التحولات.

فنتساءل على مستوى العالم الإسلامي:

– إذا كانت أساليب الفعل التي ينتهجها العاملون في الساحة الإسلامية، تتخذ أشكالا متباينة، فما هو المدخل الأنسب لعملية الإصلاح والبناء، هل هو المدخل السياسي أم المدخل الحضاري الثقافي ؟

– وإذا اعتبرنا فلسطين هي الموقع الذي يتخذ فيه الصراع بين العالم الإسلامي وقوى الاستكبار العالمي كل الأشكال، الحضارية منها والديموغرافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، وغيرها ، فكيف السبيل إلى دعم القضية الفلسطينية ؟

– إذا كان "المنتدى العالمي الاجتماعي" فضاء للتعاون على بناء عالم آخر، فكيف يمكن للمسلمين وهم أكثر الشعوب معاناة من الاستبداد الدولي، أن يوجدوا لأنفسهم موقعا فاعلا في هذا الفضاء؛ وما هي مجالات ومحددات تعاونهم مع التشكيلات والهيئات المتفاعلة فيه.

– كيف يمكن للمسلمين أن يقاوموا فكر العلمنة الذي أنتج هذا الاستبداد العالمي ؟

ونعتقد أن الإجابة على هذه الأسئلة الكلية الكبرى، وغيرها من أسئلة فرعية صغرى، هي التي تؤسس للإجابة على السؤال الكبير: هل من سبيل إلى عالم أفضل ؟